

مقاصد الإنسان من المقاصد التشريعية إلى المقاصد التكوينية. عند الإمام شاه ولي الله الدهلوي

إعداد الأستاذ إسماعيل نقاز ، دكتوراه في أصول الفقه الإسلامي
بجامعة الجزائر.

التكوينية، ومكانة الإنسان في هذه
الوصلة الكونية، وهناك يظهر التميز
الذي كان حليف الإمام في بيان
مقاصد الإنسان، عن غيره ممن
تناولوا مقاصد الإنسان.

المطلب الأول:

من المقاصد التشريعية إلى المقاصد
التكوينية.

ولعل الذي أسس لمقاصد الإنسان
هو الإمام الشاطبي؛ عندما قسّم
المقاصد إلى مقاصد الشارع، ومقاصد
المكلف، فقد حاز قصب السبق
والإبداع في استجلاء مقاصده؛ لكن

الإنسان هو ذلك المخلوق العاقل
المستقبل لنصوص الوحي، مستسلما،
ومنقادا إلى أمر خالقه في تسيير النظام،
والحياة.

فالإنسان مقصد من مقاصد هذا
الدين، فهو مقصد من حيث إنه السيد
لهذا الكون، والخليفة عن رب العالمين،
فحري بهذا المقصد، أن يولي الدين
اهتماما باستجلاء قدراته، ومؤهلاته،
ثم في جوار ذلك أن يسعى إلى ترشيده،
وتأهيله إلى الكمال الإنساني الذي به
يستحق وصف «العبدية».

إن دراسة الإمام الدهلوي لمقاصد
الإنسان يتحدد النظر فيها إلى المقاصد

الدراسات

التَّصَوُّر استجلى مقاصد الإنسان،
فرأى أن الإشكالات التي بات يطرحها
إنسان عصره ليست تشريعية؛ بل
تكوينية، لذلك انبرى إلى بيان المقاصد
التكوينية للإنسان.

وفي هذا الصدد نعرض لدراسة
الشاطبي لمقاصد الإنسان من حيث
هو مكلف بجانب من الاختصار
حتى يظهر لنا وجه ما ذكرناه، وحتى
يمكننا أن نقارن بين صناعي الشاطبي
والدهلوي.

الفرع الأول: عرض لمقاصد المكلف عند الشاطبي:

تتحدد مقاصد المكلف كما سماها
الشاطبي في أمرين أساسيين:

- قصدية المكلف في روم التكاليف.
- قصدية المكلف في تحديد، وتقدير
التكاليف.

- قصدية المكلف في روم التكاليف:
يقرر الشاطبي أن الشارع الحكيم قد

دراسة الشاطبي للإنسان «المكلف»
كان استجلاءً للمقاصد التشريعية.

فقد درس الإنسان دراسة
تشريعية، كما سيأتي، بينما المؤسس
الثاني لمقاصد الإنسان كان من نتاج
فكر الإمام الدهلوي، فقد تناولها
دراسة تكوينية.

هنا يظهر التباين المعرفي في تنزيل
الفكر المقاصدي، في كثير من المفارقات
التي ذكرناها سابقا، فالإمام الشاطبي،
وهو يدرس مقاصد الإنسان دراسة
تشريعية، إنما كان بناء على إشكالات
كان الواقع المعاش يفرضها، ويلح على
ذكر القول الفصل فيها، ترشيدا لهذا
الإنسان، وتأهيله له.

كذلك فتنزيل الفكر المقاصدي عند
الإمام الدهلوي في دراسة الإنسان
خاصة، هو الذي وجه البنية المعرفية
التي تقوم عليها الدراسة، فهو انطلق
من الواقع المعيش، وحال الإنسان
فيه إن سلبا أو إيجابا، فمن هذا

الفعلية، فهو آثم في حق الله، بسوء قصده، وغير آثم في حق الخلق لعدم إتيانه مفسدة، ولا تفويته مصلحة.

- مثل السابقة إلا أنه يكون عالماً بالموافقة، فهذا أشد من سابقه.

- أن يكون مخالفاً في الفعل، موافقاً له في القصد، مع علمه بالمخالفة الفعلية، وهذا شأن المبتدعين.

- مثل سابقتهما، غير أنه هنا غير عالم بالمخالفة، فهنا ينظر إليه من الوجهين.

ب - الحيل: فقد تضمنت المسألة الثانية، ربط الحيل، وحكمها بمقاصد الشارع بعد أن حدد مفهوم الحيل، وما يقبل منها أو يرفض.

2_ قصدية المكلف في تحديد وتقرير التكاليف: فإذا كان المطلوب أن يجعل المكلف قصده في العمل موافقاً لقصده الشارع من التشريع، فإن عامة المكلفين قد لا يعرفون بالتفصيل مقاصد الشارع في كثير

قصده من المكلف أن يكون قصده في العمل موافقاً لقصده في التشريع، فإذا كانت الشريعة موضوعة لمقاصد العباد، فالمطلوب من المكلف أن يجري على ذلك في أفعاله⁽¹⁾.

ويفرع الشاطبي على هذه القاعدة الأساس محورين ثانويين:

1 - النوايا والقصود، 2 - الحيل.

أ - النوايا أو القصود: هي منطلق فعل الإنسان، وبه يتحدد نوع العمل، وفي هذا الصدد يفرض الشاطبي استلزماً بين موافقة الشارع قصداً وفعلاً، وبين أثر تخلف أحدهما على صحة الفعل من عدمه، وهنا ست حالات:

- فإذا كان موافقاً للشارع قصداً وفعلاً، فلا إشكال في صحته.

- إذا كان مخالفاً للشارع قصداً وفعلاً، فلا إشكال في بطلانه.

- إذا كان موافقاً في الفعل، ومخالفاً له في القصد، وهو لا يعلم بالموافقة

الدراسات

بيئة هذا الفكر، يتجلى هذا في تجربة الإمام الدهلوي التأصيلية في استجلاء المقاصد التكوينية للإنسان.

فاستلهمه لهذه المقاصد جاء من وراء الإشكالات التي بات يطرحها إنسان عصره في البيئة الهندية، وتتحدد إشكالات الإنسان التي انبرى بوساطة المقاصد التكوينية في علاجها، وكشفها إلى أمرين:

- الانحراف الصوفي عن مقاصد الإنسان.

- الانحراف الفلسفي والفكري عن حقيقة الإنسان، وماهيته.

الفقرة الأولى:

الانحراف الصوفي عن مقاصد

الإنسان:

إن الإمام الدهلوي يوجه عدة فنون، وفق الرؤية الشمولية التي حذق بها مقاصد الدين، فهي المعيار الأساس الذي توزن به تصرفات

من أحكامه وتكاليفه⁽²⁾. وهنا يقرر الشاطبي أن كل من ابتغى في تكاليف الشريعة غير ما شرعت له، فقد ناقض الشريعة، وكل من ناقضها، فعمله في المناقضة باطل.

وعلى العموم فمقاصد الإنسان عند الشاطبي تتركز أساسا في هذين المحورين الرئيسيين، وهنا يظهر جليا للعيان أن المنحى التشريعي في استجلاء مقاصد المكلف عند الشاطبي يشكل الجوهر الأساس، والمنطلق الأول والأخير في هذه الدراسة، فلا شك أن الحديث عن القصود، والنيات، والحيل، والمصالح والمفاسد حديث³ عن التشريع، وآلياته.

الفرع الثاني: استشكال الإمام

الدهلوي لمقاصد الإنسان:

قد قلنا سابقا إن تنزيل الفكر المقاصدي في قضية من القضايا هو نابع من الطرح الواقعي الذي تفرضه

البشر، على اختلاف في ألوانهم وأمزجتهم، ثم علومهم.

بل إن تجربته الإصلاحية التي نفثها في فنون عدة _ العقيدة، التصوف... لا تخرج عن الإطار التوجيهي، والتصحيحي لهذه الفنون، وفق الآليات المقاصدية التي قرأها مقاصد الدين.

ومن هنا فإن صنيعة في التصوف يجسد ما قررناه، فهذا العلم قد اكتنفه كثير من الغموض، وخاصة في جنوب شرق آسيا بالخصوص، حيث ميادين التصوف المنتشرة من كل الأديان والنحل، فاختلط المفهوم الأسمى لهذا العلم، والغاية القصوى التي ينشدها، وانتقل من علم يقوم على التزكية، والتخلق لتأهيل الإنسان لخلافة هذا الكون، وتحقيق إنسانيته التي أراد الله وصفه بها إلى مواجيد، وانعزال مرضي، وسلبية تنفي عن

هذا العلم حقيقته، وإسقاط ذريع للتكاليف، وإخلاد إلى التواكل والدعة. فالإمام يحصي لنا في عصره صنفين من الناس أحدهما: اتخذ من هذا العلم منفذا سلبيًا غيب فيه عن الإنسان حقيقته، ومقصديته في هذا الكون «أن الأولى إنما تتأتى من قوم ذوي تجاذب، وقليل ما هم، ورياضات شاقة، وتفرغ قوي وقليل من يفعلها، وإنما أتمتها قوم أهملوا معاشهم، ولادعوة لهم في الدنيا... ولا يخلو من إهمال إحدى السعادتين - الدنيا والآخرة- إصلاح الارتفاقات في الدنيا، وإصلاح النفس للآخرة، فلو أخذ بها أكثر الناس خربت الدنيا، ولو كلف بها كان كالتكليف بالمحال لأن الارتفاقات صارت كالجبل»⁽³⁾.

ثم يتكلم عن الصنف الثاني من الناس الذين فهموا حقيقة التصوف، ومارسوه، وهؤلاء المؤهلون لرئاسة

الدراسات

بَعَثَ فِيهِ الْأُمِّيَّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو
عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ
الْكِتَابَ وَالْحِسَابَ {الجمعة: ٢}.

فسعى الإمام في إزاء هذا الواقع
المشؤوم -الذي أصبح فيه إنسان
عصره بين الإفراط، والتفريط، إما
خلّوه من التّدئين أساسًا، أو يحمل
تدينًا مرضيًا لا يقل خطورة عن الأول
- إلى تحقيق مقاصد الإنسان كخطوة
تصحيحية في استنهاض المؤهلات
الكامنة، والقوى الإنسانية الخاملة،
في إطار مقاصد الدين التي تغياها
الشارع الحكيم.

الفقرة الثانية:

الانحراف الفكري والفلسفي عن

حقيقة الإنسان وماهيته:

لقد سرى في العرف البشري أن
النفس هي مصدر الشر في الإنسان،
وأنها تتصف بكل ما هو مذموم من
أخلاقه، وذلك في مقابل الروح التي

الدنيا والدين فيقول: «والثانية إنما
أيمتها المفهومون، وذوو الصّلاح،
وهم القائمون برئاسة الدين
والدنيا معًا، ودعوتهم هي المقبولة،
وستنتهم هي المتبعة... وهُم أكثر الناس
وجودًا، ويتمكن منها الذكي، والغبي،
والمشتغل، والفارغ ولا حرج فيها،
وتكفي العبد في استقامة نفسه، ودفع
اعوجاجها والآلام المتوقعة عنها»⁽⁴⁾.

فإذا كان التصوف آلية معرفية
وسلوكية في ترشيد الإنسان، وتفعيل
مقاصده وتأهيله لرياسة الدنيا
والدين، فإن هذه الأخيرة ينبغي أن
توظف على قواعدها الخليقة بها،
فتأهيل الإنسان إلى ميادين التكليف
على مختلف مجالاتها، مرجعه إلى
ذلك الاستعداد الذاتي الذي يسعى
إليه في تهذيب النفس، ورفعها عن
بهيمتها؛ بل إن بعثة الأنبياء تحمل في
شقها الثاني هذا الأمر {هُوَ الصِّبْغُ

تمثل قوى الخير في الإنسان، بداية من الفلسفة البراهمية التшаؤمية المتوغلة في انتشارها في ربوع الهند، فهذه الفلسفة تقوم على تخلص روح الإنسان من شرور النفس، والبلوغ بها إلى درجات السمو العليا أين تتحد مع الله في النرفانا.

وكذلك الفلسفة البوذية في الهند، والتي تصف الإنسان بكل طاقاته أنه يحمل رذائل عشرة⁽⁵⁾.

فهذا الفكر السائد عن حقيقة الإنسان وماهيته، غيب الرؤية الإسلامية عن حقيقة الإنسان، وذلك عندما عطل القدرات الإنسانية الكامنة التي خلقه الشارع الحكيم لترويضها وتفعيلها.

فعندما ينظر الفكر إلى الإنسان نظرة تشاؤمية، فهذا معناه الحط من قيمته، بوصفه إنساناً أولاً ثم بوصفه خليفة عن الله في أرضه ثانياً.

بل إن هذا الانحراف الفكري والفلسفي عن حقيقة الإنسان، لا يقف عند حد توصيف الإنسان بأوصاف السلبية والترهل؛ بل يتجاوز ذلك إلى تحديد مكايل الترديد، والتطهير في نظرهم، وذلك بغية نفي السلبية عنه، والسمو بروحه إلى أرقى المراتب المثالية، فيقع الانحراف حتى في آلية الإصلاح والتطهير إذ يتخذ هؤلاء من وسائل التهذيب والحرمان، سلماً إلى إصلاح الإنسان فيحرمونه من الزواج، ويسعون إلى تذليل النفس وتحقيروها، حتى أصبحت دناءة لنفس، وتأصل الشرف فيها قاعدة أصيلة يعتقدونها هؤلاء، وينظرون من منظارها إلى الحياة، ونتيجة لهذا التشدد والتطرف، خرج هؤلاء عن الآداب العامة، فقد كان الواحد منهم يعمل، ويكد طوال النهار، ثم يوزعها آخر اليوم على المحتاجين سرّاً⁽⁶⁾.

الدراسات

الإنسان في الرؤية الإسلامية، رافعا عنه كل حواجز السلبية والتذمم ليُحقّق خلافته وسيادته على الكون؛ بل وأفضليته على سائر المخلوقات، فهو المؤهل الوحيد الذي أرادته الشارع خليفة لأرضه، وما ذلك إلا لكرامته وعزته.

وانطلق من التأهيل النفسي والفطري إلى إيقاظ معاني التكليف، وأحقّيته التي لا يمكنه الفكاك عنها.

ومن هنا نجد أن استشكال المقاصد التكوينية للإنسان انطلق من تصحيح هذين الانحرافين اللذين وقعت فيهما المنظومة المعرفية والسلوكية عن الإنسان كما هيته، وكقدرات مختلفة تشع في كيانه. فما هي مقاصد الإنسان التكوينية؟

المطلب الثاني:

مقاصد الإنسان التكوينية عند الإمام الدهلوي.

ومن هذين الأمرين المشكلين انطلق

ويذكر المختصون عند حديثهم عنهم، أن بعضهم هجر الطعام والشراب، وراح يعيش على النفايات والأوساخ الملقاة والخضر والفاكهة المتعفنة⁽⁷⁾.

وقد حدى بكثير من المسلمين في الهند عندما انطبعت نفوسهم بهذه الأفكار والفلسفات، أن استباحوا الحرمات، وأسقطوا التكاليف، وخرجوا عن تعاليم الدين، وأهملوا الواجبات والعبادات، بدعوى أن القلب خالص لله⁽⁸⁾.

فهذا البعد القيمي الذي يجسد الجفاف السلوكي، والانحراف المعرفي عن حقيقة الإنسان، هو الذي أيقظ في الإمام الدهلوي نشوة تصحيح المفاهيم والقيم عن حقيقة الإنسان ومقاصده، فانطلق من المقاصد التكوينية التي جاء الدين برعايتها وتوجيهها. مجسدا بذلك حقيقة

وَأَشْفَقْنَا مِنْهَا وَعَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ
كَانَ ظَالِمًا جَهُولًا {الأحزاب: ٧٢}.

نبه الغزالي والبيضاوي^(٩) على أن
المراد بالأمانة، تقلد عهدة التكليف،
بأن تتعرض لخطر الثواب والعقاب
بالطاعة والمعصية، وأن المراد
بعرضها علمين، اعتبارها بالإضافة إلى
استعدادهن، وبإبائهن (الإباء الطبيعي
الذي هو عدم اللياقة، والاستعداد
ويحمل الإنسان قابليته، واستعداد
له).

الفقرة الأولى:

الإنسان وأهلية التكليف:

إن حمل الأمانة دليل على أن هذا
الكائن مؤهل لهذه المهمة، ليس لذات
الأمر؛ بل لما أكسبه الله من تركيبة
بشرية مساوقة لما كلف به، وعن هذه
المعاني يوضح الإمام بقوله تعالى:
{إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا} {الأحزاب: 72}،
خرج مخرج التعليل، فإن الظُّلوم من

الإمام الدهلوي في استجلاء مقاصد
الإنسان التكوينية، في إطار الرؤية
المقاصدية للدين على وفق ما يتغياها
الشارع، وتتحدّد مقاصد الإنسان
التكوينية في محورين أساسيين:

الفرع الأول:

الإنسان وأسرار التكليف:

علماء الأصول يرددون دائماً
قاعدة «أن العقل مناط التكليف»
فجعلوا العقل وسيلة وواسطة،
ومؤهلاً دينامياً للمكلف، فيكون بذلك
مؤهلاً لاستقبال التكاليف الإلهية،
التي حددت له وجهته ومسيره في
الحياة، وهنا يقفنا على أسرار التكليف
الإنساني.

فالمولى سبحانه أجلى لنا هذه
الوصلة الإلهية بينه وبين الإنسان،
وكونه مكلفاً وعبدًا لمولاه قال تعالى
{إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ
وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا

أو إفراطها كالشبق والغضب والتهيه، وتبقى فارغة لانتظار ما يرد عليها⁽¹²⁾، «فإذا ترشح عليها أمر من فوقها، من إجماع على إقامة أمر مطلوب أو رضا من شيء امتلأت به، وانقادت له، وانبعثت إلى مقتضاه»⁽¹³⁾.

2_ ثم إن حال الهائم في تلطخها بالهيات الخسيسة، لا تزال خالدة إلى شهواتها، ونزواتها، ويقتصر همها على قضاء وطرها من غريزة أكل أو غيره، ولهذا «لا تزال مشغوفة بمقتضيات الطبيعة الفانية فيها»⁽¹⁴⁾.

3_ إن الله تعالى قد أودع الإنسان بحكمته الباهرة قوتين: قوة ملكية وقوة بهيمية؛ فالأولى: من فيض الروح المخصوصة بالإنسان، والثانية: من النفس الحيوانية المشترك فيها كل حيوان المتشعبة بالقوى الغريزية الهيمية الشارحة، فبقي التناقض في التركيبة قائما، والصراع

لا يكون عادلا، ومن شأنه أن يعدل، والجهول من لا يكون عالما ومن شأنه أن يعلم⁽¹⁰⁾.

وهذه ميزة اختص بها الإنسان عن سائر الكائنات، فهي مقام تشریف أكثر مما تحمله من تكليف: «وغير الآدمي، إما عالم عادل، لا يتطرق إليه الظلم، والجهل كالملائكة، وإما ليس بعادل، ولا عالم، ولا من شأنه أن يكسبها، كالهائم، وإنما يليق بالتكليف، ويستعد له من كان له كمال بالقوة لا بالفعل»⁽¹¹⁾.

ويشهد لهذا دليل العقل والنقل بعد النظر الحصيف في الأدلة، فينطلق الإمام في تحقيق هذا الأمر معيرا هذه القاعدة بعيار العقل المساج بمنطوق النقل:

1_ إن الملائكة، لا يزعجها حالة ناشئة من تفريط القوة الهيمية، كالجوع والعطش، والخوف والحزن،

محتدما، فهذه تجذبه إلى العلو، وتلك إلى السفلى، فتبرز كل واحدة على حساب الأخرى، وكل هذين الجذبين خاضع للعناية الإلهية «فللباري جل شأنه عناية بكل نظام موجود وبكل ما يسأله الاستعداد الأصلي والكسبي، فإن كسب هيئات بهيمية أمد فيها، ويسرله ما يناسبها {فَأَمَّا مَنْ أَعْطَاهُ وَآتَاهُ} (٥) وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى (٦) فَسَنبَرُهُ لِلْإِسْرَافِ} الليل: ٥ - ٧ قال تعالى: {لَهُ نُفُثٌ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا} الإسراء: ٢٠،» (١٥).

4_ ثم مما يزيد المرء وضوحا على استحقاق الإنسان للتكليف دون غيره، أن حاله شبيه «بحال من استعمل مخدرا في بدنه، فلم يجد ألم لفح النار، حتى إذا ضعف أثره، ورجع إلى ما تعطيه الطبيعة وجد الألم أشد ما يكون» (١٦). ولهذا في هذا

المقام استشكل سؤالا مفاده: فإن قيل من أين وجب على الإنسان أن يصلي؟ ومن أين وجب عليه أن ينقاد للرسول؟ فالجواب: وجب عليه هذا، وحرّم عليه ذلك من حيث وجب على المهائم أن ترعى الحشيش، وحرّم عليها أكل اللحم، ووجب على النحل أن يتبع اليعسوب، إلا أن الحيوان استوجب تلقي علومها إلهاما جبليا، واستوجب الإنسان تلقي علومه كسبا ونظرا أو وحيا أو تقليدا (١٧).

إذن فالمؤهلات الفطرية، والكسبية التي أوتىها الإنسان تكون بذلك دليلا عليه في إقامة الحجة على استحقاقه لحمل رسالة التكليف مهما تعرض لذلك وتنكر، ومن هنا: «تبين أن التكليف من مقتضيات النوع، وأن الإنسان يسأل ربه بلسان استعداده أن يوجب عليه ما يناسب القوة الملكية، ثم يثيب على ذلك، وأن يحرم

المصالح المتعارضة لبني الإنسان، ولهذا «علم الحق أن مصلحة أفراد الإنسان لا تتم إلا بنفوس كريمة، نسبتها إلى نوع الإنسان كنسبة القوى العقلية في الواحد منا إلى نفسه»⁽²⁰⁾.

الفقرة الأولى :

تهذيب النفس واستحقاق التكليف:

من مسلمات الأمور، وبديهياتها أن الإنسان تتنازعه قوى الشر والخير، ثم قربه من أحدهما هو الذي يكفل له الغلبة على الآخر، لكن الشارع الحكيم أمدّه منّا ووسائله من خلالها، يقرب من قوى الخير، ويبعد عن قوى الشر، تتمثل في التركيبة السلوكية، والرياضات النفسية المهدبة لسلوكه، فقد «وجب في حكمة الله تعالى ورحمته أن يهيء في غيب قدسه رزق قوته العقلية، يخلص إليه أزكاها، فيتلقاه من هناك»⁽²¹⁾، فيكون بذلك إذا باشر أعمالاً أرواحها الخشوع

عليه الانهماك في البهيمية، ويعاقب على ذلك»⁽¹⁸⁾.

الفرع الثاني: مقصد تهذيب النفس:

إن الشارع قد تغيا من الإنسان كماله البشري الذي يتأتى من مقامات الدروج إلى ميادين الكمال، فكلما سعى الإنسان إلى تهذيب نفسه، ورفعها عن خستها، وخلودها إلى الشهوة الجذابة، كلما قطع أشواطاً في مدارج الكمال، الذي به يكون مؤهلاً لخلافة الحياة، والمقصود بتهذيب النفس أنها: «أحوال ومقامات سنية كمحبة الله والتوكل عليه، مما ليس في المهائم جنسها»⁽¹⁹⁾، وكذلك مقدمات تبين مقامات الإحسان.

فتهذيب النفس مقصد يقصده الشارع الحكيم أساساً في تقويم مؤهلات الإنسان، وترشيدها، فبه تستقيم أحوال المختلفين، وتلتئم

الفقرة الثانية: آليات السلوك التهذيبي في مقاصد الإنسان:

إن الإمام الدهلوي قد أعلن عن مقصد الأخلاق والتهذيب السلوكي، وجعله جوهر مقاصد الإنسان كما سبق تقريره، لكن نفاذ هذا المقصد وفاعليته، لا تتم إلا في إطار الآليات السلوكية والمدارج التهذيبية، فمن خلال هذه الآليات تتحقق الأوصاف التي يتغياها الشارع الحكيم في مقاصد الإنسان. وقد نظر الإمام الدهلوي في هذه الآليات السلوكية نظرة تحيط بالإنسان وفق، التركيبة البشرية التي أوتىها، فهي لا تخرج عن الاحتياجات الفطرية والنفسية التي مافئ الإنسان في حياته متعطشا إليها، ومفتقرا؛ بل هي الأساس الذي به تتحقق السعادة وتكمل. وتحدد هذه الآليات خصال أربع:- الطهارة -الإخبات -العدل -السماحة.⁽²⁴⁾ وقد عقد الإمام فصلا كاملا في تقرير السعادة مفهوما، وتحقيقا، وأسبابا. انطلق في كل هذه المعاني

بجانب الحق والطهارة والسماحة والعدالة، صلح مزاجه الملكي، وإذا باشر أعمالا أرواحها أضداد هذه الخصال فسد مزاجه الملكي⁽²²⁾، فهذه التهيئة الروحية، والنفسية التي خولها الإنسان، من شأنها أن تجعله مؤهلا ومستحقا للتكليف، كوصف لا ينبغي التجرد عنه، ولا الاعتذار فيه، فقد قضت «حكمة الله لوجود رجل زكي يستعد للوحي، قد قضى بعلو شأنه، وارتفاع مكانه، حتى إذا وجد اصطنعه لنفسه، واتخذ جراحة لإتمام مراده، وأنزل عليه كتابه، وأوجب طاعته على عبادته»⁽²³⁾.

فكل تكليف إلى هذا الإنسان إنما جاء من وراء هذه المؤهلات ، فإنه سبحانه ما أوجب تعيين تلك العلوم في غيب الغيب إلا العناية بالنوع، ولا ألح عند القرانات بسؤال تلك الشريعة الخاصة إلا أحوال النوع، فله الحجة البالغة.

الدراسات

الأخيرة إنما يتم بإزالة هذه الأشياء، واكتساب أصدادها، واستعمال ما تقرر في العادات كونه نظافة بالغة⁽²⁷⁾

2_ الإخبات: وحقيقته أن الإنسان إذا التبس بالطهارة الحسية والمعنوية، كان حرياً باستقبال المعاني الإلهية، فتكسبه هذه المنة كمالات، وعبودية أسعى، وهذا أعظم مقصد يتغياها الشارع من عبادته، وأسبابها تتم عن طريق مؤاخذه نفسه بما هو أعلى حالات التعظيم عنده⁽²⁸⁾.

3_ السماحة: وحقيقته، هيئة تمنع الإنسان من أن يتمكن منه ضد الكمال المطلوب منه علماً وعملاً، فالسماحة خصلة تجعل النفس لا تنقاد لدواعي الأهواء والشهوات وإنما تتصرف في أمور الدنيا، وهي تطلب التجرد والتقوى، والتشبه بكمال الذات العلية⁽²⁹⁾، وأسبابها تكون بالتمرن على الخلوة والبذل والعفر ومؤاخذه النفس بالصبر عند المكاره⁽³⁰⁾.

4_ العدالة: ملكة في النفس تصدر عنها الأفعال التي يقام بها نظام المدينة، تسعى إلى الإصلاح والمقاربة

من هذه الآليات السلوكية، فجعلها المعيار الأساس في تقرير السعادة المنشودة وتحقيقها: «اعلم أن طرق تحصيل السعادة على الوجه الثاني كثيرة جداً، غير أنني فهمني الله تعالى بفضله أن مرجعها إلى خصال أربع تتلبس بها الهممية من غطتها النفس النطقية، وقسرتها على ما يناسبها، وهي أشبه حالات الإنسان بصفة الملاء الأعلى معدة للحوقه بهم، وانخراطه في سلوكهم، وفهمني أنه إنما بعث الأنبياء للدعوة إليهم، والحث عليها، وأن الشرائع تفصيل لها وراجعة إليهم»⁽²⁵⁾. فالسعادة في نظره هي التحقق بصفات الكمال والانسلاخ من ضرورات الزمان والمكان، والتشبه بأخلاق الله؛ بل إن رسالة الدين في مقاصده سوق المكلفين إلى السعادة⁽²⁶⁾.

وتتحدد هذه الآليات في الخصال الأربع التالية:

1_ الطهارة: وحقيقته التجرد عن الألوات المادية المعنوية، حتى يكون بذلك مؤهلاً، ومستعداً لقبول الإلهامات، وخضوع النفس واستكانتها للملاء الأعلى، وأسباب تقرر هذه

بمحض الخيرية والاستقامة، والفطرة الإنسانية المسددة، وأسبابها تكمن في المحافظة على السنة الراشدة بتفاصيلها⁽³¹⁾.

فعن هذه الخصال السلوكية الرفيعة «إن تحققت وفهمت اقتضاءها للكمال العملي والعلمي، وإعدادها للانسلاخ في سلك الملائكة، وفطنت كيفية انشعاب الشرائع الإلهية، بحسب كل عصر منها، أوتيت الخير الكثير»⁽³²⁾.

هذه الآليات في الحقيقة هي مقاصد في ذاتها؛ لكن تبقى إلى ما هو أعلى منها شأنًا، وأعظم تشوفًا، وسائل وسبل لإقامة مقاصد الإنسان الكبرى.

المراجع:

- (1) أحمد الريسوني: نظرية المقاصد عند الإمام الشاطبي: 125.
- (2) المرجع نفسه: 126.
- (3) حجة الله البالغة: 1/106.
- (4) المصدر نفسه: 1/106.
- (5) عبد الماجد الفوري: الفلسفات الهندية والهندوكية والإسلامية والإصلاحية: 342.
- (6) طارق لعجال: التربية الروحية وتجربة التأصيل عند الدهلوي: 90.

(7) الهجویری: كشف المحجوب: 2/266.

(8) ابن الجوزي: تلبیس إبلیس: 350.

(9) البیضاوی: أنوار التنزیل وأسرار التأویل، 5/22.

(10) حجة الله البالغة: 1/54.

(11) حجة الله البالغة: 1/54.

(12) المصدر نفسه: 1/54.

(13) المصدر نفسه: 1/54.

(14) المصدر نفسه: 1/54.

(15) حجة الله البالغة : 1/55.

(16) المصدر نفسه: 1/55.

(17) المصدر نفسه: 1/60.

(18) المصدر نفسه: 1/55.

(19) المصدر نفسه: 1/59.

(20) حجة الله البالغة : 60.

(21) المصدر نفسه: 1/59.

(22) المصدر نفسه: 1/21.

(23) المصدر نفسه: 1/60.

(24) حجة الله البالغة : 1/106.

(25) المصدر نفسه : 1/106.

(26) عبد القادر جدي: المقاصد عند الإمام

الدهلوي: مخبر الدراسات الشرعية، العدد 4/

صفر 1426/مارس 2005 110

(27) حجة الله البالغة: 1/110.

(28) المصدر نفسه: 1/111.

(29) المقاصد عند الإمام الدهلوي: مخبر الدراسات

الشرعية، العدد 4/ صفر 1426/مارس 2005: 110.

(30) حجة الله البالغة: 1/111.

(31) حجة الله البالغة: 1/111.

(32) المصدر نفسه: 1/108.